

٣ - عالم الذباب

بقلم المرحوم الأستاذ معروف الرصافي

(تمة)

هذه الخلاصة تحتوي على مادة البكتريوفاجين القوية المضادة لأربعة أنواع من الجراثيم المولدة للأمراض ، أرائها تحتوي على مادة نافعة أخرى ليست من نوع البكتريوفاج ، ولكنها من حيث الجوهر تفيد الدفاع المضوي عند مقاومته أربعة أنواع من الجراثيم المرضية . هذا آخر ما قاله الدكتور في الفصل المذكور فيهم من هذا فهما جليا ، أن البكتريوفاج لا يشق من جميع الأمراض وإنما يشق من مرض الهيضة والدوزنطاريا لأن هذين المرضين يشتركان في أنهما اختلال في الأمعاء . ريفهم أيضا أن البكتريوفاج لا يضاد جميع الجراثيم المضادة التي ينقل الذباب بواسطتها الأمراض إلى الناس ، وتكلم الدكتور عنها وعددها في الفصل الثاني من رسالته ، فذكر منها الحل والدراخوما والتيفويد والزحار والطاعون والحمة والحجرة الهيضة والكوليرا والجذام والتيفوس والرمد بأنواعه

وبهذا يتضح أن الذباب لا يأخذ البكتريوفاج إلا من براز الناقهين من مرض الهيضة ، وهذا لا يوجد في كل زمان ومكان . وأما الخلاصة التي ذكرها عن مجلة التجارب الطبية والتي تحتوي على المادة البكتريوفاجية ، فالبكتريوفاج فيها حاصل بالتطعيم ولم يأخذه الذباب من الخارج ، إلا أنها تدل على أن الذباب فيه خاصية تواريد المادة البكتريوفاجية المضادة لأربعة أنواع من الأمراض لا للأمراض كلها ، وهذا لا يلزم منه أن يكون الذباب مطهرا بالبكتريوفاج من جميع الأدوية ، ولا شافيا من جميع الأمراض ، كما أنه لا يستوجب غمس الذباب في الشراب على الإطلاق . أما الحديث فإنه يطلق الأمر بغمس الذباب ولم يقيده بشئ

هذا ما نستخلصه من كلام الدكتور للجواب على السؤالين

الذكورين في صدر المقال ثم نقول

إن البكتريوفاج لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون موجودا في الذباب دائما وأبدا وشافيا من جميع الأمراض ، وإما أن لا يكون كذلك . فلي التقدير الأول يلزم أن نتخذ الذباب في حياتنا وانما لنا من جميع الأمراض ، وأن ننهي كل

تكلم الدكتور في الفصل المذكور من دوريل مكتشف البكتريوفاج . وقال إنه أثبت أن البكتريوفاج هو العامل الوحيد على إطفاء جائحات الهيضة السامة بالهواء الأسفر أو الكوليرا ، وأنه موجود في براز من مم في دور النفاضة من المرض المذكور ، وإن القباب يأخذه وينقله من براز هؤلاء ، وأنه متى ظهر وانتشر القباب الحامل للبكتريوفاج بكثرة في البلاد انطفت جذوة الهواء الأسفر ، وانقطع دابر به سرعة فيهم من هذا ، أن البكتريوفاج لا يوجد إلا في أيام الهيضة ، لأن القباب إنما يأخذه من براز الناقهين من هذا المرض ، فإذا انقطعت الهيضة لم يبق للبكتريوفاج وجود . ولم يذكرنا الدكتور في كتابه لا صراحة ولا ضمنا أن البكتريوفاج موجود في كل براز من براز الإنسان والحيوان لأنه إذا كان موجودا في كل براز لزم أن يكون موجودا في القباب دائما وأبدا فأينما وجد القباب وجد معه البكتريوفاج وإلا فلا

ثم تكلم الدكتور في الفصل المذكور ، فبين كيف كان دوريل يعمل على تكثير البكتريوفاج بإزدواه ، وكيف كان يداوى به المريض بمرض الهيضة ، وقال ثم أخرجت تجارب عديدة في الهند فأتت بنتائج باهرة فيما يختص بياسيل الدوزنطاريا الحادة ، إلى أن قال فخلصوا على نتائج باهرة . وكان البكتريوفاج العامل في شفاء الكوليرا والدوزنطاريا الحادة . وقال ثم جاءت مجلة التجارب الطبية في عددها (٥٤) الصادر في عام ١٩٢٧ بمقال عنوانه البكتريوفاج في ذباب البيوت ، قالت فيه لقد أطم القباب القوي بألف البيوت زرع الجراثيم المرضية ، وبعد حين اختفى أثر هذه الجراثيم في القباب فأتت كلها وتولد في القباب مادة قاتلة نسعى البكتريوفاج . ويدهى الكاتب أنها خلاصة من القباب ، ومن محلول ملحي فسيولوجي ، وأن

الفاضلة ، ذلك لأن المادة الانسانية لا تتحقق إلا في مجتمع ، وإن المجتمع لا يتم بناؤه إلا بالتعاون المخلص ، والخلق المستقيم الصادق وبالمعمل الصالح كما ذهب إليه ابن رشد وغيره من فلاسفة الإسلام ، فليس غرض الشارع تلقين العلم ، بل فرضه كما قلنا أخذ الناس بالطاعة والأعمال الصالحة

أما المعجزة فهي كل ما خرج عن مقدور البشر عادة ، فلا بد للمعجزة من خرق المادة ، ولذلك قالوا « لله خرق العادات » وأما هذه الأمور المجهولة فهي داخلية في مقدور الناس عادة . لأنهم يتوصلون إلى اكتشافها ومعرفة ما بالتجريب أو بالبحث والتفتيش أو بغير ذلك من الطرق العلمية

ونحن إذا أردنا أن نعرف معجزة المعجزات فلننظر إلى رسول الله محمد بن عبد الله بقم مكة وقبورها كيف قام بالدعوة إلى الإسلام في أيام كان العرب فيها محترين متعادين متناكرين ، بأكل بضمهم بعضا كالنار تأكل بعضها إن لم نجد من تأكله ، وكيف قاومه العرب حتى عشرته الأقربون ، وكيف استمر على الدعوة بنفسه الكبيرة وعزمه العظيم الجبار متعملا في سبيل ذلك من المصائب والتعاب ما فوق طاقة كل إنسان ، حتى جمع أشقات العرب ووجد كلمهم وأحدث بهم نهضة كبرى ، عربية البداء ، عالمية المنهى ، فسارت بهم أعلامهم إلى أقصى الشرق وأقصى الغرب خافقة بالنعيم ومرفرفة بالمدل والإحسان ، وكان كل ذلك في مدة لا تزيد على عشرين سنة بحد وقته

ولو أن سألنا في ذلك الزمان الذي لا واسطة فيه أسرع من البعير ، أراد أن يسمح سياحة متفرج لا قانع في البلاد التي نشروا فيها لواء المدل والتوحيد لما استطاع أن يتم سياحته في أقل من هذه المدة . فهذه معجزة المعجزات التي أظهرها الله على يد محمد ، والتي لم يسبق ولن يسكون لها نظير في تاريخ البشر

كل العناية به وتنميته وبكثيره في بيوتنا وألا نتعاشاه ، بل نضمه في أطعمتنا وأشرقتنا لنأمن به من عادات الأستقام وجأحات الأمراض

وإذا كان هذا حقا فلماذا نرى الدكتور في رسالته يصيح بالناس صيحة التنذير العريان ، فيحذروهم من أخطاره وينذروهم باضراره ، ويستحثهم إلى محوه واستنصاه ، كما أطال الكلام بذلك في الباب السادس والسابع والثامن من رسالته

وأما على التقدير الثاني ، وهو أن البكتريولوجيا لا يوجد في الذباب دائما وأبدا ، وإنما يوجد فيه عند حدوث أحوال وظروف خاصة ، وأنه لا يشق من جميع الأمراض ولا يضاد جميع الجراثيم ، وإنما يشق من أمراض خاصة ، ويضاد أربعة من الجراثيم المخررة ، فنقول فيه إنه يلزم حينئذ أن يكون الأمر بنفس الذباب في الشراب مقيدا بتلك الظروف والأحوال ، لا مطلقا . ولا يخفى أن الحديث الذي جمعه الدكتور من معجزات الرسول بطابق الأمر بالنعيم ولم يقوده بشيء ، كما أنه يخص بالشفاء أحد الجناحين دون الآخر

أما أنا فلا أشك أن الحديث موضوع لا أصل له كما ذكرت ذلك وبينته في كتابي (الشخصية الحمديّة) عند الكلام على الرواية عند العرب . ومن المبت أن نفتش عن معجزات رسول الله في مثل هذه الأمور التي يكتشفها الناس ويصلون إلى معرفتها بالطرق العلمية والوسائل الفنية ، ولو كانت معجزة لما قدروا على اكتشافها . ولو جاز أن ثبت معجزة من هذا النوع لجاز أن نثبتها للمتنبئ شاعر للعرب فإنه قبل عشرة قرون قال :

امل عتبك محمود عواقبه فرما صغت الأجسام بالملل
انتقد النبي على هذا وقيل له هذا من قول الطيب أو الحكيم كما في رسالة الخاتمي أو غيره ، فانظر إليها فقد قال هذا في الأيام التي كان التطعيم فيها بجراثيم الأمراض غير معلوم ، وفن البكتريولوجيا غير موجود ، فإن هذا وابن المعجزات ؟ إن الله لم يرسل رسوله إلى الناس لتعليمهم العلم وإنما أرسله إليهم ليصلحهم وبأخذهم بالطاعة والأعمال الصالحة ، والأخلاق